

حسن الصباح
مؤسس الاسماعيلية النزارية

(الحشاشيه)

اعداد :

د / زيد محمد خضر



حسن الصباح . مؤسس الإسماعيلية النزارية (الحشاشين)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد... إن الدارس للحركة الإسماعيلية النزارية " الحشاشين " وبخاصة سيرة زعيمها " حسن بن الصباح " لا بد أنه يجد كثيراً من العبر والعظات التي يبحث عنها في هذه الدراسة ، سوف يقرأ كيف قامت هذه الحركة من خلال الانقسامات المستمرة لطائفة الشيعة ، ويرى كيف استغل حسن الصباح هذه الانقسامات لبناء دولة تحقق مآربه وأهدافه

انطلقت الدعوة الإسماعيلية النزارية " الحشاشون" (*) من كرمان ويزد جنوب شرق إيران وامتدت إلى أواسط إيران وأصفهان ثم خوزستان شمال الخليج العربي ثم إلى هضبة الديلم جنوب غرب بحر قزوين واستقرت في قلعة الموت ، وشرقاً وصلوا إلى مازندران واحتلوا مناطق: رودبار ولامسار وقوهستان .. ثم احتلوا كثيراً من القلاع حتى وصلوا نهر جيحون ووصلت دعوتهم إلى سوريا ، حيث امتلكوا القلاع والحصون على طول البلاد وعرضها مثل : بانياس ، مصياف القدموس ، الكهف ، الخوابي وسلمية .

وقد أثارت هذه الحركة وزعيمها " حسن الصباح " الذعر والرعب في قلوب كثير من الناس : سواء كانوا من أعدائهم

(*) هناك آراء كثيرة حول تسمية هذه الحركة بالحشاشين، منها : لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش كما اشتهر عنهم ، أو أن أعدائهم أطلقوا عليهم هذا الاسم الذي اشتقوه من الكلمة ASassant أساسان وتعني القتل وهي لفظة أطلقها الصليبيون على الفدائية الإسماعيلية النزارية الذين كانوا يفتكون بملوكهم وزعائنهم .

كالعباسيين والسلاجقة والصليبيين، أو الناس العاديين الذين خافوا على أرواحهم من فدائيتهم فاضطروا لمسايرتهم والسكوت عنهم .

كما كلفت هذه الدعوة الدولة العباسية وحلفائها الكثير من الجهد والعناء لمقاومتها والقضاء عليها لكنها لم تستطع ذلك، حتى كان زوالهم من إيران على يد هولاكو المغولي، وفي سوريا على يد الظاهر بيبرس، ولهم أتباع الآن في إيران، وسوريا ولبنان، واليمن، ونجران والهند، وفي أجزاء من أواسط ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي السابق، فما هي هذه الحركة الإسماعيلية ؟ وكيف نشأت ؟ .

وفي هذا البحث " حسن الصباح مؤسس الحركة الإسماعيلية النزارية .. "، تناولنا تاريخ هذه الطائفة منذ نشأتها حتى وفاة مؤسسها حسن الصباح الذي ركزنا الحديث عنه .

والله أسأل أن يلهمنا الحق والصواب، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان

نشأة الحركة الإسماعيلية :

انحصرت زعامة العلويين منذ أواخر العهد الأموي في جعفر الصادق وهو الإمام السادس عند طائفة الشيعة الإمامية التي تقول : أن الإمامة تنحصر في سلالة الإمام علي بن أبي طالب عن طريق ابنه الحسين، وأنها لا تنتقل من الأخ إلى أخيه بعد أن انتقلت من الحسن إلى الحسين، وأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب ⁽¹⁾ .

ويروى أن الإمام جعفر الصادق كان قد عهد إلى ابنه الأكبر إسماعيل بالإمامة، ثم خلعه لأمر نقمها عليه، وعين بدلاً منه ولده الآخر

(1) أبو محمد الحسن النوبختي، فرق الشيعة، ص 57-58 .

موسى الكاظم، ثم لم يلبث إسماعيل أن مات في المدينة المنورة سنة 145هـ / 762م في حياة أبيه، فاختر الإمام جعفر الصادق أن يحل محله في الإمامة ابنه الآخر "موسى الكاظم".

وفي عام 148هـ / 765م توفى الإمام جعفر الصادق فانقسمت طائفة الشيعة الإمامية إلى قسمين :

أ - الإمامية الموسوية : وقالوا بإمامة "موسى الكاظم بن جعفر الصادق" وأبنائه من بعده وأصبح عندهم الإمام السابع، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم "الإمامية الإثنا عشرية".

ب- الإمامية الإسماعيلية : وقالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وأبنائه من بعده .

ولما كان "إسماعيل" قد توفى في حياة أبيه - كما أسلفنا - فقد رأى أتباعه أن الإمامة يجب أن تنتقل بعد وفاة جعفر الصادق إلى حفيده "محمد بن إسماعيل" طبقاً لتعاليم الإمامية، وبناء على ذلك أصبح "محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق" هو الإمام السابع عندهم .

ولما توفى الإمام "محمد بن إسماعيل" سنة 193هـ / 809م، خلفه ابنه الإمام "عبد الله الرضى" وبحث عن مكان آمن بعيداً عن أعين العباسيين، واستقر أخيراً بقرية "سلمية" من أعمال حمص في سوريا، التي أصبحت المركز الرئيسى للدعوة الإسماعيلية، وعاش فيها الأئمة الإسماعيليون الثلاثة بعد محمد بن إسماعيل الذين يسمون "الأئمة المستورون"، وكان يخرج منها الدعاة لنشر دعوتهم في البلاد الإسلامية

ولما توفى الإمام عبد الله الرضى تولى ابنه "أحمد الوفي" إمامة الإسماعيلية، وبعد وفاته خلفه ابنه الإمام "الحسين بن أحمد بن عبد

الله " الذي اشتهر باسم محمد الحبيب، وفي عهد هذين الإمامين بلغت الدعوة الإسماعيلية أوج انتشارها في زمن الستر، فقد انتشرت دعاة الإسماعيلية في كثير من أرجاء العالم الإسلامي كاليمن، وشمال إفريقيا والمغرب، والبحرين، والأحساء، وعمان، فضلاً عن بلاد العجم ولما توفي محمد الحبيب خلفه في إمامة الإسماعيلية ابنه " عبيد الله " .

وفي عهد الإمام عبيد الله نجح دعاة الإسماعيلية في نشر دعوتهم في بلاد المغرب حتى أصبحت مهياة لقيام دولتهم، فاستدعوا الإمام عبيد الله من سلمية، وذهب عبيد الله إلى المغرب في رحلة طويلة وشاقة، استطاع خلالها الإفلات من مراقبة الخلفاء العباسيين، حتى وصل إلى المغرب والتقى بشيعته وأعلن الشيعة الإسماعيلية قيام " الدولة الفاطمية " في المغرب في شهر ربيع الأول من سنة 297هـ/909م وأصبح عبيد الله يلقب " عبيد الله المهدي أمير المؤمنين " (1).

وتوفي الإمام عبيد الله المهدي سنة 322هـ/933م، وتتابع على حكم الدولة الفاطمية أولاده وأحفاده من بعده، حتى تولى الخلافة سنة 341هـ/953م " المعز لدين الله الفاطمي " الذي نجح في احتلال مصر سنة 358هـ/969م وضمها للدولة الفاطمية، وجعل من القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية، ثم أرسل قائده جوهر الصقلي فاستولى على بلاد الشام (2)، ثم توالى الخلفاء الفاطميون على حكم " مصر والمغرب " حتى وصل إلى الحكم الخليفة " المستنصر بالله معد أبو تميم " سنة 427هـ/1035م .

(1) المقرئزي، انعاظ الحنفا، ص 92 .

(2) المقرئزي، انعاظ الحنفا، ص 147 .

وفي أواخر عهد هذا الخليفة شهدت مصر أزمة اقتصادية وسياسية خطيرة عُرفت باسم " الشدة المستنصرية "، إذ انخفض منسوب مياه نهر النيل، وأصاب البلاد قحط شديد، وتبع ذلك غلاء الأسعار وانتشار المجاعات والأوبئة، وقد ساعد على تفاقم الأزمة الاقتصادية ضعف الحكومة، وعدم وجود وزراء أقوياء، وحتى بعد أن انتهت " الشدة المستنصرية " بعد سبع سنوات لم تستطع الدولة إعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد بسبب كثرة الفتن والاضطرابات، فاستعان الخليفة " المستنصر " بوالي عكا أمير الجيوش " بدر الجمالي " الأرمني الأصل، فدخل مصر سنة 466هـ/1073م، فقلده الخليفة المستنصر الوزارة إلى جانب إمارة الجيش فصار بيده كل شيء في الدولة ⁽¹⁾.

حسن الصباح :

هو حسن بن علي بن محمد الصباح الحميري، ولد عام 430هـ/1037م في مدينة الري بإيران، وقيل ولد في مدينة " قم " ثم انتقل إلى الري، وقد وصفه ابن الأثير " أنه كان رجلاً شهماً كافياً، عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك " ⁽²⁾، ونشأ حسن الصباح في بيئة شيعية اثني عشرية، ولما كانت الري مركزاً لنشاطات الطائفة الإسماعيلية فقد تأثر بذلك، واعتنق الدعوة الإسماعيلية وعُمره سبعة عشر عاماً .

(1) أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ص 300-302 .

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 118/10 .

وقال حسن الصباح عن نفسه في مذكراته : " ظلت حتى السابعة عشرة دارساً وباحثاً في المعرفة ، ولكنني ظلت على عقيدة أجدادي الاثنى عشرية ، وذات يوم التقيت برجل (أحد الرفاق) * يُدعى " عميرة زاراب " كان من وقت لآخر يدعو إلى نظرية الخلفاء في مصر ، وكان عميرة زاراب ذا شخصية قوية ، وعندما ناقشني لأول مرة قال : " إن الإسماعيلية يقولون كذا وكيت " وكان يقول لي أيضاً : عندما تخلو إلى التأمل في سريرك أثناء الليل سوف تعرف أن ما أقوله لك مقنع " (1) .

واستمر حسن الصباح في قراءة كتب الإسماعيلية ، والاجتماع مع دعائهم ، وبعد ذلك لقي داعية إسماعيلي آخر فلقنه التعاليم الإسماعيلية حتى اقتنع بها ، ولم يبق أمامه سوى أداء يمين الولاء للإمام الفاطمي ، وأدى تلك اليمين أمام داعية إسماعيلي نائب عن " عبد الملك بن عطاش " * كبير الدعاة الإسماعيليين في غرب إيران والعراق الذي كان يلقب " بشيخ الجبل " وفي صيف عام 464هـ / 1072م وصل " عبد الملك بن عطاش " إلى مدينة " الري " فلقى حسن الصباح وأعجب به ، وجعله من حواريه ، وأخذ يلقنه أمور الدعوة وتفوق حسن الصباح على أقرانه في الدعوة ، وترقى في المراتب حتى عينه " عبد الملك بن عطاش " وكيلاً له ،

(*) الرفاق : لقب يطلقه الإسماعيليون على أنفسهم .

(1) برنارد لويس ، الحشاشون . فرقة ثورية في تاريخ الإسلام ، ص 78-79 .

(*) عبد الملك بن عطاش : عاش في حياة الخليفة الفاطمي المستنصر ، وكان حكيماً متعمقاً في علوم الفلسفة والفقه وكبيراً للدعاة الإسماعيليين ، وكان داعي الدعاة في أصفهان ، ثم أصبح رئيساً للدعوة الإسماعيلية في المناطق الوسطى والغربية من بلاد فارس ، وكان يتلقى توجيهاته من الخليفة المستنصر بالله في القاهرة .

ثم عهد إليه رئاسة الدعوة الإسماعيلية في "أصبهان" (*) وحدد له مهام معينة في الدعوة، وبعد أن أثبت حسن الصباح جدارته في المهام التي أوكلت إليه، طلب منه شيخ الجبل "عبد الملك بن عطاش" أن يسافر إلى دار الحكمة في القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية الإسماعيلية لكي يسجل اسمه في بلاط الخليفة الفاطمي في القاهرة .

غادر حسن مدينة الري سنة 467هـ / 1074 م متوجهاً إلى مصر، فمر في طريقه على أصفهان وأذربيجان، والموصل، وسنجار وسورية، ومنها عرج إلى ميفارقين وبقي فيها إلى أن طرده قاضي المدينة، بعدما أنكر حسن سلطة علماء السنة وأصر على أن الإمام وحده هو الذي لديه الحق في تفسير الدين، وكان ابن الصباح خلال تجواله يلقي المحاضرات، ويجري المناظرات لنشر أفكاره حتى سبقته أخباره إلى حيث يريد، وأخيراً وصل حسن الصباح إلى مصر في شهر صفر من عام 471هـ / 1078 م .

بقي حسن الصباح في مصر ثمانية عشر شهراً، التقى خلالها بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله الذي أكرمه وأحاطه برعايته، كما تلقى حسن الصباح في مصر المزيد من العلوم الإسماعيلية، وحدث في أثناء وجود حسن الصباح في القاهرة أن عين الخليفة الفاطمي المستنصر ابنه الأكبر نزار ولياً لعهد، وكان حسن الصباح يرى أن تولية نزار الإمامة بعد أبيه المستنصر تتفق مع تعاليم الإسماعيلية التي تشترط في الإمام أن يكون أكبر أبناء أبيه، وبالتالي نادى حسن الصباح بإمامة نزار بعد أبيه المستنصر، وهذا على خلاف ما رأى الوزير "الأفضل بن

(*) أصبهان أو أصفهان : تقع وسط هضبة إيران، تبعد 340 كم جنوب طهران .

بدر الجمالي " الذي نادى بإمامه " أحمد " بن المستنصر الذي كان أصغر سناً من أخيه نزار .

ويروى أن حسن الصباح سأل الخليفة المستنصر يوماً عن ولي عهده بقوله : من إمامي بعدك ؟ فقال له : ولدي نزار ، ثم أن حسن الصباح استأذن الخليفة أن يدعوا له في بلاد المعجم فأذن له ⁽¹⁾ .

واختلف حسن الصباح مع بدر الجمالي على أمر خلافة المستنصر ، وأدى الخلاف بينهما إلى نزاع داخلي ، ورأى بدر الجمالي أن وجود حسن الصباح في القاهرة خطراً يهدد كيانه فأخذ يكيد له ، ثم زجه في السجن بمدينة دمياط ، ولم يكتف بدر الجمالي بذلك بل عول على إخراجة إلى بلاد المغرب ، وطرده من مصر على متن مركب للإفرنج إلى شمال إفريقيا غير أن الريح قذفت بالسفينة التي أبحر عليها من الإسكندرية في رجب سنة 472هـ / 1079م إلى سواحل الشام فنزل بثغر عكا وقصد منها إلى حلب فبغداد ، ثم اتجه إلى خوزستان - وكانت في ذلك الوقت مركزاً هاماً للإسماعيلية - ثم سار حسن بن الصباح إلى أصبهان (أصفهان) فوصلها في 29 ذو الحجة 473هـ / 10 يونيو 1081م وأخذ يدعو هناك إلى إمامة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، متعاوناً في ذلك مع داعي الدعاة " عبد الملك بن عطاش " وابنه أحمد الذي كان كذلك من كبار الدعاة الإسماعيليين .

قلعة أطلوت :

قلنا أن حسن الصباح بعد اختلافه مع الوزير الأفضل الجمالي فر إلى أصبهان ، ودعا إلى إمامة وخلافة المستنصر بالله " ، ولكنه كان

(1) ابن ميسر، تاريخ مصر، ص 37

يريد مكاناً مناسباً، يحميه من مطاردة السلاجقة السنين، ويتخذ منه قاعدة لنشر دعوته ودعائه، وفي الوقت نفسه يرضي طموحه بالعمل مستقلاً عن التبعية لشيخ الجبل " عبد الملك بن عطاش " فقد كان حسن الصباح يرغب في أن يبني مجداً خاصاً به، وقد عَزَفَ حسن الصباح عن الإقامة في المدن لانكشافها، ولم يجد له ولأتباعه أفضل من الإقامة في القلاع، ولذلك امتنعوا في سلسلة من القلاع والحصون، فلم يتركوا في منطقتهم مكاناً مشرفاً إلا أقاموا عليه حصناً، ولم يتركوا قلعة إلا ووضعوا نصب أعينهم احتلالها، أما حسن الصباح شخصياً فقد اختار لنفسه الإقامة في قلعة الموت المنيعه، فما هي قلعة الموت ؟ وأين تقع ؟

قلعة الموت: هي حصن منيع مبني على صخرة عالية وسط جبال البرز (جبال الديلم) الواقعة جنوب بحر قزوين في مدينة " رودبار "، وترتفع هذه الصخرة عن سطح البحر حوالي 2100م وتبعد هذه القلعة عن العاصمة الإيرانية طهران حوالي 100كم.

وقد بنيت القلعة عام 225هـ/840م بطريقة معينة فوق قمة الجبل بحيث لا يكون لها إلا مدخل ومخرج واحد، ولا يُعرف على وجه التحديد من الذي بناها، ولكن الراجح أن بانيها أحد ملوك الديلم القدماء واسماها " الوه أموت " ومعناها " عش النسر "، ثم جددتها السلاجقة وأصبحت إحدى حصونهم .

وقد استطاع حسن الصباح الاستيلاء على هذه القلعة المنيعه عن طريق الحيلة سنة 483هـ/1090م، فقد قال ابن الأثير: أن حسن الصباح كان يطوف على الأقوام يُضلهم فلما رأى قلعة الموت واختبر أهل تلك النواحي، أقام عندهم، وطمع في إغوائهم، ودعاهم في السر وأظهر

الزهد، ولبس المسوح، وتبعه كثير من الناس، واستمال صاحب القلعة (وكان علوياً) فأحسن الظن به وقربه إليه وصار يتبرك به، فلما أحكم حسن الصباح أمره واطمأن إلى قوته، دخل يوماً على الحاكم العلوي بالقلعة وقال له : أخرج من هذه القلعة، فتبسم العلوي وظنه يمزح، فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج الحاكم، فأخرجوه إلى " دامغان "، وأعطاه ماله وملك القلعة ⁽¹⁾.

وأقام حسن الصباح في القلعة، حيث كان يقضي جل وقته في القراءة ومراسلة الدعاة وتجهيز الخطط، وكان همه كسب أنصار جدد، والسيطرة على قلاع أخرى .

وكذلك استمر بإرسال الدعاة إلى القرى المحيطة برودبار، كما أخذ يرسل الميليشيات لأخذ القلاع المجاورة عن طريق الحيل الدعائية فإن فشلوا فليأخذوها بالقوة، وقد تمكنوا بهذا الأسلوب من أخذ كثير من القلاع والأماكن الصالحة لبناء القلاع الحصينة، ومن الأمثلة على ذلك سيطرتهم على قلعة " لامسر " التي تقع في رودبار، فقد كان سكانها يرفضون دعوة الحسن، فأرسل الحسن أحد رفاقه المسمى " كيابرزك " أميد " مع جمع من رجاله فتسلق القلعة خفية في ليلة العشرين من ذي الحجة سنة 495هـ / 1102م وقتل ساكنيها، وأقام برزك أميد عشرين عاماً في هذه القلعة لا ينزل منها إلا عندما يستدعيه الحسن، وهكذا انتشروا في عدة مناطق من خوزستان، وهضبة الديلم، ومازندران، وقزوین، وكل منطقة رودبار .

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8/ 225 .

وفي سنة 484هـ/1091م بعث حسن الصباح دعائه إلى منطقة " كوهستان " الجبلية على الحدود الحالية بين إيران وأفغانستان - وكانت هذه المنطقة معقلاً للشيعة وغيرهم من المنشقين الدينيين - واستطاع حسن الصباح أن يضم سكان تلك المنطقة إلى دعوته عن طريق استغلال حالة التذمر التي كانت هناك ضد السلاجقة، كما استغل كذلك تراثهم الموالي للشيعة، فأصبحت تلك المنطقة تابعة للإسماعيليين بما فيها من قلاع كثيرة، ومن أشهرها قلعة " سنمكوه " .

ظهور الإسماعيلية النزارية :

بوصول " بدر الجمالي " إلى الوزارة الفاطمية في أواخر عهد الخليفة الفاطمي " المستنصر بالله " أخذ نفوذ الوزراء في الإزدیاد، فقد استأثر هذا الوزير بالسلطة دون الخليفة، ولما توفى بدر الجمالي خلفه في الوزارة ابنه " الأفضل " فتمادى في اغتصاب حقوق الخليفة الفاطمي المستنصر حتى أصبح كالمحجور عليه حتى توفي سنة 487هـ / 1094م وكان الخليفة المستنصر بالله عین قبل وفاته ابنه الأكبر " نزار " ولياً لعهد، لكن الوزير " الأفضل بن بدر الجمالي " لم يرق له ذلك وظل يماطل الخليفة في بيعته لنزار حتى توفي الخليفة ولم يبايعه، وبعد وفاة الخليفة المستنصر استطاع الوزير " الأفضل " إبعاد نزار عن العرش، وعین أخاه الأصغر " أبا القاسم أحمد " خليفة، ولقبه " المستعلي بالله "، وذلك : لأن أم " المستعلي " كانت ابنة بدر الجمالي وأخت الوزير الأفضل⁽¹⁾ فاعتقد الأفضل أنه بتولية ابن اخته " أبا القاسم " الخلافة سيسيطر على الدولة لسببين : الأول لأن الخليفة ابن اخته، والثاني لصغر

(1) ابن ميسر، تاريخ مصر، ص 30-35 .

سن الخليفة، في حين اعتقد الوزير الأفضل أن نزاراً إذا ولي الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة لأنه ناضج ويعي ما حوله⁽¹⁾، وقيل أن هناك سبباً آخر لحجب الوزير الأفضل الخلافة عن نزار وهو سوء تفاهم قديم بين الوزير ونزار لأنه كان يعيب على الوزير الأفضل تكبره وغروره وسوء تصرفه مما أدى للخلاف بينهما⁽²⁾.

واستطاع "نزار بن الخليفة المستنصر" الهروب إلى الإسكندرية، فاستقبله واليها وأهلها ونصروه، وخرجوا عن طاعة الخليفة الفاطمي الجديد "المستعلي بالله بن المستنصر" وانحازوا إلى "نزار" وبايعوه بالخلافة ولقبوه "المصطفى لدين الله".

ولما وصلت أخبار ما جرى في الإسكندرية إلى الوزير "الأفضل الجمالي" سار إليها على رأس حملة عسكرية، ودارت معركة بينه وبين نزار ووالي الإسكندرية "ناصر الدولة أفتكين" انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده إلى القاهرة، لكن الأفضل أعد حملة جديدة في أوائل سنة 488هـ / 1095م حاصرها الإسكندرية مدة سبعة أشهر، ارتكب أثناءها كثيراً من ضروب القسوة والقتل، حتى اضطر كل من أفتكين ونزار إلى طلب الأمان، فأمنهما الأفضل ثم أمر بإنفاذهما إلى القاهرة حيث قُتلا هناك⁽³⁾.

وترتب على إقصاء نزار بن الخليفة المستنصر عن الخلافة وقلته، ظهور فريق من الناس يتشيع له في مصر، بل ودعا إلى إمامته أيضاً بعض

(1) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 103 .

(2) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني ...، 180/4 .

(3) ابن ميسر، تاريخ المستنصر، ص 36-37 .

أهالي بلاد الفُرس من الإسماعيلية الذين كانوا يدعون إلى انتقال الإمامة من الإمام جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل وبنيه من بعده

أما حسن الصباح في "الموت" فإنه ما أن علم بوفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة 487هـ / 1094م، وتولي ابنه المستعلي مكانه، حتى أعلن بين أنصاره أن المستعلي اغتصب الخلافة والإمامة من نزار، وأن الإمام الشرعي هو نزار بن المستنصر، وأنه هو وكيلاً عنه، وأخذ يدعو له ولأبنائه من بعده، وبذل قصارى جهده في الرد على حجج طائفة المستعليية بمصر وزود مكتبات قلاع الإسماعيلية ببلاد الفرس بالمؤلفات الكثيرة التي تثبت صحة إمامة نزار وبطلان إمامة المستعلي (1).

ولكن قبل أن نستعرض في الموضوع لا بد أن نجيب عن التسائل التالي : أين هو الإمام نزار بن المستنصر بالله حتى ندعو له ؟ وأين هم أولاده من بعده ؟ هل هم حقيقة أم أشباح من نسج خيال حسن الصباح حتى يصل إلى مأربه ؟؟

الرواية الإسلامية السنية والفاطمية تقول أن نزار بن المستنصر قُبض عليه بعد أحداث الإسكندرية وأن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي أمر بقتله بأن بنى عليه حائطين وجعله بينهما إلى أن مات، ولم يكن له عقب مستر أو ظاهر .

(1) طه شرف، دولة النزارية، ص 212 .

وقد اختلفت الروايات الإسماعيلية (النزارية) حول هذا الموضوع كما يلي :

الرواية الأولى : أن نزار لما اشتد عليه الحصار في الإسكندرية غادرها مع أهل بيته متخفياً بزي التجار نحو " سجلماسة " حيث مكث عند عمته هناك بضعة أشهر حتى عادت إليه الرسل التي أوفدها لإبلاغ حسن الصباح عن محل إقامته، ثم سار نزار إلى " جبال الطالقان " مع أهل بيته ومن بقي معه من دعائه وخدمه، حيث استقر بقلعة " الموت " بين رجال دعوته المخلصين، وعمل مع حسن الصباح على تأسيس الدولة النزارية، وبعد أن تم له ذلك أصابه مرض شديد استدعى على أثره دعائه ونص على إمامة ابنه " علي الرضى " وذلك سنة 490هـ / 1097م وتوفي في اليوم التالي .

الرواية الثانية : تقول أن حسن الصباح بعد مقتل نزار أرسل بعض فدائييه إلى مصر فأحضروا ابناً لنزار إلى قلعة الموت وبايعوه بالإمامة واسمه " علي الرضى "، وقيل أن هذا الغلام المحضّر من مصر كان حفيداً لنزار وليس ابنه .

الرواية الثالثة : تقول أن جارية لنزار كانت حاملاً منه قبل مقتله وأن فدائية حسن الصباح أحضروا هذه الجارية إلى قلعة " الموت " وأحاطوها برعايتهم حتى ولدت ابناً لنزار وهو المدعو " علي الرضى " (1) .
ويعلق عبد الرحمن بدوي على هذه الروايات فيقول: إن الروايات النزارية السابقة ليس لها سند تاريخي

(1) مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص 255 .

ولم يذكرها أي مؤرخ، وتم اختراعها للربط بين نزار وبين إسماعيلية الموت وسائر القلاع الإسماعيلية⁽¹⁾.

ومن المرجح أن خط الإمامة النزارية انتهى بمقتل الإمام نزار، ولكن حسن الصباح وأتباعه اخترعوا هذه الروايات السابقة حتى يستمروا في دعوتهم الهادفة إلى الاستحواذ على الدعوة الإسماعيلية وتحقيق طموح حسن الصباح الشخصي، ومن الأدلة على ذلك : أنه لم يرد أي ذكر للأئمة النزارية المزعومين في أي من أدبيات حكام قلعة الموت، بل أن حسن الصباح نفسه أعلن أنه وكيلاً عن الإمام، وعندما توفي الحسن تتابع على حكم الدولة النزارية عدد من الزعماء* ولم يشر أي منهم إلى الإمام النزاری، أما الدليل الأكبر على عدم وجود ورثة للإمام نزار بن المستنصر هو أن الزعيم الرابع لقلعة الموت " الحسن الثاني بن محمد كيا بزرک " أعلن عام 559هـ/1164م أنه من الناحية الظاهرية حفيد لكيا بزرک ولكنه في الحقيقة إمام العصر ومن نسل الإمام نزار، وأصبح اسمه لا يُذكر إلا مقروناً بـ (على ذكره السلام) كما يطلق في العادة على الأئمة المستقرين، وهكذا يتضح لنا أن نزار قُتل بعد هزيمته في الإسكندرية، وانقطع خط الإمامة النزارية، لكن شيخ الجبل أحيا هذا الخط على طريقته الخاصة .

(1) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، 356/2 .

(*) بعد وفاة حسن الصباح، خلفه في حكم الموت أحد قادته وهو كيا بزرک آميد، ثم ابنه محمد كيا بزرک، ثم ابنه الحسن الثاني بن محمد، ثم تتابع أولادهما حتى سقوط دولتهم .

وأياً كان الأمر فقد انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فريقين :

الفريق الأول : نادى بإمامة المستعلي بن المستنصر، فسموا المستعلية أو الفاطمية بمصر أو إسماعيلية المغرب، وهؤلاء هم الذين استمرت فيهم الخلافة الفاطمية حتى زوالها .

والفريق الثاني : نادى بإمامة نزار الابن الأكبر للخليفة المستنصر وسموا النزارية أو الباطنية أو إسماعيلية المشرق أو إسماعيلية إيران أو الحشاشين، وقد تزعم هذا الفريق حسن الصباح المقيم في قلعة الموت .

وأصبح إسماعيلية إيران أو حكام قلعة الموت (الإسماعيلية النزارية) أعداء للخليفة الفاطمي في مصر مثلما هم أعداء للخليفة العباسي في بغداد، وسultan السلاجقة في إيران، وللصليبيين في بلاد الشام، بل أن العلاقة بينهم وبين الفاطميين في مصر ساءت كثيراً، فقد حدث في عام 514هـ/1121م أن اغتيل الوزير الفاطمي في مصر الأفضل بن بدر الجمالي، وقد ادعى الباطنية (النزارية) أنهم قتلوه، ولكن المؤكد هو أن الخليفة الفاطمي " الأمر بأحكام الله " هو من قتله ليتخلص منه لأمور نقمها عليه، وقد احتفل حسن الصباح في قلعة الموت مدة سبعة أيام بهذه المناسبة، ثم بعث الخليفة " الأمر بأحكام الله " (*) برسالة من القاهرة لحسن الصباح، يطلب منه أن يرجع للحق، وينبذ اعتقاده في إمامة نزار، ولكن دون جدوى، فتدهورت العلاقات كثيراً بين الطرفين .

(*) الخليفة الأمر بأحكام الله : هو أبا علي بن الخليفة المستعلي بن المستنصر بالله، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة 495هـ

والواقع أن اعتناق الحسن الصباح العقيدة النزارية كان مؤذناً بتطور جديد في تاريخ هذه الدعوة فقد ابتدع نظرية "الإمام المستور esoteric" والدعوة إليه، مخالفاً بذلك الدعوة الشيعية الإمامية التي كانت تعتمد على نظرية "الإمام الظاهر exoteric" والدعوة إليه، ويبدو لي أن حسن الصباح استغل فرصة موت الإمام "نزار بن المستنصر" في السجن بالقاهرة عند الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، فقال أن الإمامة انتقلت إلى أولاده وأحفاده، ولكنهم أصبحوا أئمة مستورين من باب السرية الأمنية وأصبح هو وكيلاً أو نائباً للإمام .

واستطاع حسن الصباح أن يستغل الدعوة النزار خيراً استغلالاً، فأصاب نجاحاً بعيد المدى، وأفلح في تكوين نظام جديد، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة في وسط دولة العباسيين السنيين.

وتركزت جهود حسن الصباح بعد موت المستنصر في نشر الدعوة للإمام المستور نزار فاحتفظ بأنصاره القدامى من الإسماعيلية في فارس وخراسان، فالتفوا حوله، كما عمل على ضم عناصر جديدة إلى دعوته، وعلى تكوين مجتمعات إسماعيلية بحتة تستقر في أماكن حصينة، يجتمع فيها كل دعاة النزارية لمحاربة أهل السنة والنيل منهم، فأصبح للحسن مئات القلاع والحصون القوية في أقاليم: رودبار، قوهستان والطالقان وغيرها، كما وجه حسن الصباح دعائه نحو بلاد الشام لنشر الدعوة النزارية ومحاربة السلاجقة والمستعلية والصليبيين، ومن ثم أصبح في كل إقليم أتباع وفي كل مدينة أنصار

وقد امتازت دعوة حسن الصباح في ذلك الوقت بأنه استغل مبدأ التلقي من الإمام المعصوم، فادعى أنه لا يمكن لإنسان أن يعرف شيئاً عن طريق غير طريق الإمام أو نائبه، وما دام هو نائب الإمام فقد أصبح



مصدر العرفان، وكان هذا المبدأ من العوامل التي شجعت على حمل السيف في وجه الدولة العباسية السنية، كما لجأ حسن الصباح إلى التأويل فأول القرآن للنزارية تأويلاً يتفق ونزعاته السياسية، فاعتقد الدعاة أنه أحق بتعينهم، وقدمه المستجيبون، كما استغل عقيدة الإمام ونائبه وحجته كشرط أساسي للدين الحق، ولذلك سمي أشياع هذه الدعوة الباطنية وسميت دعوتهم الدعوة الجديدة .

الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام :

لم يكتف نزارية فارس بما تحقق لهم ، بل رغبوا في مزاحمة الإسماعيلية المستعلية وبسط نفوذهم في ديار الفاطميين أنفسهم، فبثوا الدعاة في العراق ، والشام ، ومصر ، واليمن ، وأقبح حسن الصباح نسبياً في مد سلطته إلى بلاد الشام فاستقر بعض دعائه في حلب .

وكان أول ظهور للنزارية في بلاد الشام عام 498هـ / 1105م عندما أرسل حسن الصباح أحد دعائه وهو " أسعد بن قاسم بن الحسن العجمي " المعروف بالحكيم المنجم ، ليفسد بين الأخوين السلجوقيين "دقاق بن تتش " حاكم دمشق ، ورضوان حاكم حلب

ونجح الداعي الحكيم المنجم في استمالة الأمير رضوان حاكم حلب ، كما نجح في إقامة دار للدعوة الإسماعيلية في حلب ، وتكوين مجموعة فدائية استعان بهم رضوان في تحقيق أغراضه ، وكان أول ضحاياهم صهر رضوان "جناح الدولة حسين " صاحب حمص ، وبعد موت الحكيم المنجم ، تسلم أمر الدعوة في حلب " أبو طاهر الصائغ العجمي " فازداد النزارية قوة ونفوذاً .

ولما توفي رضوان بن تتش سنة 507هـ / 1113م وملك حلب بعده ابنه " ألب أرسلان الأخرس " قرر البطش بالباطنية ، فقبض على أبي طاهر وقتله ، واعتقل عدداً كبيراً منهم ، وأخذ أموالهم ، وقتل جماعة منهم ، وتفرق الباقين في بلاد الشام حيث استطاعوا الاستيلاء على بعض الحصون هناك .

عقيدة الإسماعيلية النزارية :

تلتقي معتقدات الإسماعيلية النزارية " الحشاشون " أو الباطنية مع معتقدات الإسماعيلية عامة من حيث ضرورة وجود إمام معصوم ومنصوص عليه وبشرط أن يكون الابن الأكبر للإمام الأسبق .

وكل الذين ظهروا من قادة الحشاشين كانوا يقولون أنهم يمثلون الحجة والداعية للإمام المستور أو وكلاء له وينوبون عنه ، باستثناء الحسن الثاني وابنه فقد ادعيا بأنهما إمامان من نسل نزار.

المواجهة بين الإسماعيلية والسلاجقة :

بلغ النفوذ الإسماعيلي أوجه في إيران في عهد الدولة السامانية الفارسية ، ولكن هذا النفوذ أخذ في الانحسار بعد قيام الدولة الغزنوية سنة 351هـ / 962م ، وتلاشى هذا النفوذ الإسماعيلي تقريباً في بداية العهد السلجوقي^(*) ، وذلك لشدة حماسة السلاجقة للمذهب السني وتعقبهم للإسماعيلية الشيعة غير أن نفوذ الإسماعيلية عاد إلى الظهور في عصر السلطان السلجوقي الثالث ملكشاه ، فاستولوا بقيادة زعيمهم حسن الصباح على كثير من القلاع ، وأذوا السكان ، واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم .

(*) قامت الدولة السلجوقية عام 429هـ / 1037م . على يد السلطان طغرل بك

أثار استفحال أمر الإسماعيلية حفيظة السلاجقة فبدءوا يفكرون بمواجهة حسن الصباح وجماعته عسكرياً، فأمر السلطان ملكشاة وزيره نظام الملك إرسال حملة عسكرية إلى "قلعة الموت" فحاصروها وضيقوا عليها، ولم يستطع الإسماعيلية مواجهة الحملة، وضاق زعيمهم حسن الصباح ذرعاً بالحصار، وقرر أن يصنع شيئاً، فأرسل بعض فدائييه ليغتالوا الوزير "نظام الملك" فنجحوا في ذلك سنة 485هـ/1092م وبعد حوالي شهر مات السلطان ملكشاة، فرجع العسكر السلجوقي عن حصار القلعة⁽¹⁾.

وبعد موت السلطان ملكشاة حدث نزاع بين أولاده على العرش استمر بضعة سنوات، ضعفت خلالها الدولة، فأدى ذلك إلى تفاقم خطر الإسماعيلية الباطنية فقويت شوكتهم، والتأمت جموعهم في أصبهان حيث نشروا دعوتهم، وأخذوا يلحقون الأذى بمخالفهم، ومضوا في سرقة أموالهم وتقتيلهم، وأحطوا الفزع في قلوب الأهلين، حتى كان الأمراء يضعون الدروع تحت ثيابهم، وسرعان ما استولى الباطنية على كثير من القلاع، وأشهرها قلعة أصبهان (شاهدز) التي بناها السلطان ملكشاة، وقلعة "سنمكوه" قرب أبهم⁽²⁾.

وفي عام 489هـ/1096م هاجم السلطان السلجوقي بركياروق بن ملكشاة قلاع النزارية، واسترد منهم قلعة خالنجان، وقلعة سنمكوه بعد أن حاصرها حوالي ثمانية أشهر، كما استرد بعض القلاع الصغيرة

(1) الحسيني، صدر الدين، زبدة التواريخ ..، ص 139 .

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 284 .

الأخرى، ثم هاجمهم مرة أخرى بعد خمس سنوات وأعمل فيهم القتل والتنكيل .

وفي عام 498هـ / 1104م هاجم النزارية بعض أعمال منطقة " بيهق " وأكثروا القتل في أهلها، ونهبوا أموالهم، وسبوا نساءهم، وهاجموا قوافل الحجاج في منطقة الري وقت السحر، وأعملوا فيهم السيف، وغنموا أموالهم ⁽¹⁾.

وفي عام 500هـ / 1106م هاجم السلطان محمد بن ملكشاة قلعة " شاهدز " في أصفهان التي كان الباطنية قد استولوا عليها فاسترجعها، وقتل صاحبها " أحمد بن عبد الملك العطاش " ⁽²⁾.

وفي المحرم من عام 503هـ / 1109م سيرا السلطان محمد بن ملكشاة وزيره " نظام الملك أحمد بن نظام الملك " إلى قلعة الموت لقتال " حسن الصباح " ومن معه من الإسماعيلية النزارية، فحاصروهم وضيقوا عليهم، ولكن فصل الشتاء داهمهم ففكوا الحصار وعادوا إلى رحالهم وفي شهر شعبان من العام نفسه وبينما كان الوزير " نظام الملك أحمد " متوجهاً إلى الجامع لإداء الصلاة إذ وثب عليه بعض الفدائية الباطنية فضربوه بالسكاكين فجرح في رقبته، فبقي مريضاً مدة ثم برأ ⁽³⁾.

(*) بيهق : كورة كبيرة بنواحي نيسابور غرب خراسان، وعاصمتها مدينة خسرو جرد .

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8/ 228 .

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8/ 242 .

(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 83/4 .



وفي عام 505هـ / 1111م أرسل السلطان محمد بن ملكشاة أحد الأمراء وهو "أنوشتكين شيركير" لقتال النزارية فاستطاع أن يستولي على بعض قلاعهم، ثم سار بمن معه إلى قلعة ألموت وحاصروها، ثم أن السلطان محمد أمده ببعض الأمراء الآخرين، وصمم الأمراء على الاستيلاء على القلعة مهما كلف الأمر من جهد، فشددوا الحصار على القلعة، وبنوا حولها مساكن لهم وأقام فيها الأمراء بالتناوب بحيث لم يتركوا حصار القلعة ولو لفترة بسيطة، ولم يتوقف السلطان محمد عن إمداد أمرائه بالمؤن والسلاح والرجال حتى اشتد الأمر على الباطنية وانعدمت عندهم الأقوات بسبب طول الحصار، ولم يجدوا بداً من إنزال نسائهم من القلعة إلى المحاصرين يطلبين الأمان لهم على أن يسلموا القلعة مقابل السماح لهم أن يغادروا القلعة بسلام إلى أي مكان شاءوا، لكن أنوشتكين رفض العرض، وأعاد النساء إلى القلعة كي يموت الجميع جوعاً.

لكن ما أمله هذا القائد لم يتحقق، بسبب وفاة السلطان محمد بن ملكشاة سنة 511هـ / 1117م فلما بلغ النزارية ذلك قويت نفوسهم وطابت قلوبهم وصمموا على المقاومة أما أمراء السلطان وجنوده المحاصرين للقلعة فقد عزموا على الرحيل، فقد مات السلطان وسئمو هذا الحصار الطويل الذي استمر ست سنوات، فنهاهم قائدهم "أنوشتكين" عن ذلك فلم يستجيبوا، وفكوا الحصار وغادروا، ولم يبق غير "أنوشتكين" وبعض مقاتليه، فنزل إليهم الباطنية وهزموهم وغنموا ما معهم⁽¹⁾.

(1) ابن الجوزي، المنتظم، 133.

وبوفاة السلطان محمد بن ملكشاة توقف تنفيذ مشروعاته للقضاء على النزارية، الذين وجدوا في وفاة السلطان فرصة جديدة لتقوية أنفسهم، مستفيدين من الصراع الذي نشب بين "محمود بن ملكشاة" وعمه السلطان سنجر.

وخلال الخمسة عشرة سنة التي أعقبت وفاة السلطان محمد بن ملكشاة استطاع النزارية بوسائلهم المتعددة أن يمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام، وأن يستولوا على بعض القلاع والحصون هناك.

ولما استقر السلطان السلجوقي "سنجر" في الملك أرسل جنوده لقتال النزارية في "قهبستان" وغيرها، واستمرت الحرب بينه وبين الباطنية لعدة سنوات، وكان حسن الصباح يُرسل إلى السلطان في طلب الصلح ولكنه لم يجاب إلى طلبه، فخادع حسن الصباح جماعة من خدم السلطان بمال كثير فغرسوا خنجراً في الأرض أمام سرير السلطان وهو نائم، وفي اليوم التالي أرسل حسن الصباح رسولاً إلى السلطان يحمل رسالة مضمونها "لو لم تكن إرادة الخير بالسلطان قائمة لكان الخنجر الذي غُرس في الأرض أجدر به أن يُغرس في صدر السلطان اللين" فخاف السلطان سنجر ومال إلى مصالحتهم، وكف عن مهاجمتهم، فقويت شوكتهم واشتد عودهم.

وفي أيام هذا السلطان مرض حسن بن الصباح في شهر ربيع الآخر سنة 518هـ / 1124م وأرسل رجلاً إلى قلعة "لامسر" ليستدعي "برزك آميد" وعينه مكانه، ثم ما لبث حسن الصباح أن توفي في السادس من ربيع الآخر من العام نفسه، بعد أن قضى في قلعة "الموت"

خمس وثلاثين عاماً لم يفادر خلالها القلعة إطلاقاً⁽¹⁾، وحتى عندما توفي دفن في القلعة .

ملاحظات حول شخصية حسن بن الصباح :

صفاته الشخصية :

كان حسن بن الصباح شهماً وتقياً واسع الثقافة عالماً بالهندسة والحساب والفلك والتنجيم وشخصية سياسية بارعة، وكان شعاره الزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان أتباعه يلقبونه بالخواجة وسيدنا ويعدونهم وكيلاً عن الإمام نزار .

وتذكر بعض القصص عن ورعه وتقواه منها : أنه أعدم ولديه الاثنين لأسباب أخلاقية، فقتل الأول لتورطه في جريمة قتل، وحدث أن اتهم ابنه الثاني محمد بشرب الخمرة فأمر بقتله أما مع أعدائه فقد اشتهر بالصلابة والقسوة، فقد اتضح ذلك من خلال مقابلاته مع رُسل أعدائه أو مفاوضاتهم، أو من خلال عمليات الاغتيال التي كان ينفذها عن طريق فدائييه، ومن الأمثلة على ما قدمنا :

في سنة 501هـ/1107م حوصرت قلعة الموت من قبل السلطان السلجوقي واشتد الحصار عليها فأرسل السلطان رسولاً إلى حسن الصباح يطلب منه الاستسلام ويدعوه لطاعته، فنادى الحسن أحد فدائيته وقال له ألقى بنفسك عن هذا البرج ففعل، وقال للثاني اطعن نفسك بهذا الخنجر ففعل فقال للرسول اذهب وقل لمولاك إن لدي 70 ألفاً أمثال هؤلاء مستعدين لبذل دمائهم في سبيل عقيدتهم .

(1) مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، 230 .

وجاء في كتاب المنتظم لابن الجوزي حكاية مفادها : أن ابن الصباح عندما كان يستقبل مبعوثين من خصومه السلاجقة يطلبون منه التنازل عن الموت والرجوع عن دعوته عمد إلى الرد عليهم بواقع حال فدائييه الذين أذاقهم فردوسه ، فاستدعى اثنين منهم وقال لأحدهم : هل تريد العودة إلى الفردوس والخلود فيها ؟ فأجاب الفتى : أن نعم ، فقال له اذهب إلى أعلى ذلك البرج وألق نفسك إلى الأرض ، فانطلق الغلام برغبة طافحة وفرح ظاهر وارتقى البرج وقذف بنفسه إلى الأرض فتقطع جسده ميتاً ، ثم التفت إلى الفدائي الآخر ملوحاً بالفردوس وسأله : أليدك خنجر ؟ فأجاب أن نعم ، فقال له : اقتل نفسك فانزع الفتى خنجره وغرسه في عنقه وفار دمه ثم خر صريعاً .. ، عندها قال ابن الصباح للرسول بين يديه : أبلغوا من أرسلكم أن عندي عشرين ألفاً هذا مبلغ طاعتهم لي !!

أما الأمثلة على اغتياالاته فسنذكرها لاحقاً إن شاء الله .

وأقام الحسن في الموت خمسة وثلاثين عاماً ، لم يبرحها قط ، ولم يغادر منزله منها سوى مرتين خرج فيهما إلى سطح القصر ، وشغل كل وقته بالتعلم والتعليم ، وتحصين القلعة ، وتحسين أحوال المعيشة فيها ، ووضع سياسة الدعوة ، وإدارة أعمال مملكته ، وعاش حياة زهد تقشف وورع ، وجمع مكتبة ضخمة ضمت نفائس الكتب وألف كتباً ورسائل كثيرة لم يبق منها إلا النادر بسبب إتلافها بعد سقوط قلعة الموت على يد هولاكو سنة 654هـ/1256م⁽¹⁾ .

(1) رشيد الدين ، جامع التواريخ . ص 123

تنظيم حسن الصباح للمجتمع النزاری :

عمل حسن الصباح على تنظيم جماعته تنظيمًا دقيقاً يضمن لهم البقاء، ولذلك قسم جماعته إلى مراتب ودرجات، وجعل المحبة والإخوة والمرحمة الرباط الذي يربط الأفراد الذين ينتمون إلى رتب دعوته على اختلافها، وجعل للأعضاء شروطاً، وحدد لهم حدوداً خاصة بهم، ولم يشأ أن يجند أتباعه جميعاً ليظهروا السلاح في وجه أعدائه، بل جعل حمل السلاح مقصوراً على فئة امتازت بقوة أبدانها، يهددون الأعداء بخناجرهم المسمومة، فسموا الفدائية، لأنهم يبذلون نفوسهم رخيصة في سبيل إمامهم المستور ونائبه المعلن .

أما أهم مراتب الدعوة النزارية فهي :

المرتبة الأولى أو مرتبة شيخ الجبل : وعدد أفرادها سبعة على رأسهم حسن الصباح نفسه بصفته نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة، كما اتخذ ابن الصباح لنفسه لقب مولانا وسيدنا، وشيخ الجبل *، وكان هو وحده الذي يعين الدعوة ويعزلهم، فأطلق عليه البعض لقب داعي الدعوة وكان سلطانه لا يُحد، يُصدر أوامره من الموت فيطيعها النزارية في كل مكان، ولم يجعل شيخ الجبل لمبدأ الوراثة أي اعتبار، فجعل التقاضي في الدعوة والإخلاص لها هو الأساس عنده، ولذلك لم يحرص على تولية أحد أبنائه من بعده بل أنه قتل ابنه في حياته .

المرتبة الثانية أو مرتبة كبار الدعوة : وعدد أفرادها ثلاثة أشخاص ممن يثق شيخ الجبل بهم ثقة تامة، فقد قسم ابن الصباح العالم إلى ثلاثة أقطار أو بحار، وجعل على رأس كل قطر واحداً من هؤلاء

(*) يقال أن شيخ الجبل أو الشيخ لقب أطلقه عليه الصليبيون .

الدعاة الثلاثة، وهم أشبه بنظام أئمة المذاهب، على أنه لم يترك لهم شيئاً من الحرية، بل ظل الرأس المدبر والعقل المفكر، ومن أشهر هؤلاء الدعاة الكبار : كيا برزك أميد، والحسين القيني، وأبو طاهر⁽¹⁾.

المرتبة الثالثة أو مرتبة الدعاة (الرفاق) : وهم أكثر عدداً من أفراد المرتبة الثانية، ويتلقون أوامرهم من رؤساء الدعوة في الموت أو من كبار الدعاة في الأقاليم الثلاثة، وكانوا يتلقون العلم في مدارس القاهرة أول الأمر، ثم ينتقلون إلى الموت ليتعلموا أسرار الدعوة في المدرسة التي أنشأها ابن الصباح، وقد اشترط شيخ الجبل أن يكون الداعي بارعاً في التشكيك، ماهراً في التلبيس، ليخدع العامة ويدخلهم في عقيدته واحتل هؤلاء الدعاة الدرجات العليا في الدعوة فقد كانوا على علم بعقائد وأغراض وسياسة هذا النظام كما كانوا على علم بأسرارهم .

وهؤلاء الدعاة أو الرفاق هم المكلفون بنشر الدعوة الإسماعيلية بأسلوبهم الخاص في مختلف الأقطار والأقاليم، وهم المدافعون عن مذهبهم بالعلم والفلسفة، وعلى الغالب كانوا يتولون الوظائف الإدارية في البلاد التي يوفدون إليها لنشر الدعوة⁽²⁾.

المرتبة الرابعة : وهي مرتبة الفداوية أو الفدائيون : وهي المكلفة ببذل التضحيات السريعة المستعجلة وتنفيذ الأوامر السرية الهامة، وقد تدرب أفراد تلك الفرقة أعظم تدريب على استعمال كافة الأسلحة وعلى

(1) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ... 271/4-272 .

(2) مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص 257-262 .

الفروسية كما لقنوا مختلف العلوم الفلسفية وأتقنوا أغلب لغات أهالي تلك البلاد .

ولا يشترط في الفدائي أن يتعمق في دراسة المذهب النزاری، وإنما يشترط فيه التفاني في طاعة الرئيس والتضحية في سبيله إلى أبعد الحدود ، كما يشترط فيه أن يكون من الشبان الأقوياء .

وقد اتصف هؤلاء الفدائيون بالشجاعة النادرة، وحب المخاطر، والعزيمة التي لا تقهر، والصبر الذي لا ينفذ، فقد كان الواحد منهم يتربص الفرصة شهوراً بل سنين للفتك بعدوه، فأصبحوا آلات انتقام فتاكة بيد شيخ الجبل، وخلقوا جواً من الخوف والفرع بين الناس .

المرتبة الخامسة : اللاصقون، وهم ينتسبون إلى الدعوة، ولكنهم ليسوا من الدعاة ولا من الفدائية، إنما يأخذون العهد على المستجيبين للدعوة دون أن يكون لهم حق نشر الدعوة، كما لم يتعمق هؤلاء في فهم أصول المذهب .

المرتبة السادسة : المستجيبون، وهم عامة الناس أو المؤمنون المبتدئون، ولا يعرفون الكثير عن المذهب الإسماعيلي.

وقد وضع حسن الصباح عدة وسائل يستعين بها دعائه لنشر مذهبهم بين الناس، ومن هذه الوسائل :

1- التفرس : ويقصد به إدراك مكنونات النفس، ويطلق على ذلك الباطنية اسم " الاستيطان " وكان الدعاة يقومون بهذا العمل ليعرفوا قوة إرادة الفرد، ومدى سهولة انقياده لهم .

2- التأنيس : وهو من الأنس الذي يعني بث الأمن والطمأنينة في نفوس المدعويين، وإشباع ميولهم، وإعطائهم كل ما يرغبون به، وذلك بهدف كسبهم إلى جانب الدعوة الجديدة .

3- التشكيك : وهو زعزعة عقيدة المدعويين، وهنا يحاول الداعي أن يصل إلى قلب ليزعزع عقيدته ويزلزل إيمانه، لتحويله إلى الدعوة الجديدة .

4- التعليق : وهو ترك المدعو بعد تشكيكه بعقيدته متارجحاً متشوقاً إلى معرفة المذهب الإسماعيلي، حتى تطمأن نفسه وتستقر .

5- التدليس : وهو أن يلجأ الداعي إلى التمويه، ويدعي ادعاءات كاذبة تزيد في إغراء المدعو وتشويقه، وإلهاب رغبته في الدخول إلى الدعوة الجديدة .

6- التأسيس : وهو تثبيت المعلومات والحقائق التي يدلي بها الداعي للمستجيب، حتى تستقر في ذهنه ويقبل عليها ويؤمن بها .

7- الخلع : ويقصد به إقصاء المدعويين عن المذاهب السنية نهائياً، وذلك بإسقاط الفرائض الشرعية في الإسلام، وذلك بالاستعانة بالتأويل غير المشروع⁽¹⁾ .

ونتيجة لهذه التنظيمات الدقيقة التي أوجدها حسن الصباح لدولته وأتباعه، كان موفقاً في جميع الحروب التي خاضها، وليس بغريب أن يخلده التاريخ كأعظم شخصية في القرن الرابع والخامس الهجري .

(1) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ...، 273-272/4

الاغتيالات :

كان الاغتيال السياسي المنظم من الوسائل الأساسية التي لجأت إليها الدعوة الجديدة كما سماها أصحابها ، وعرف مقاتلوها باسم الفداوية أو الحشيشية ، فكانوا ينتقون بعناية فائقة ويؤهلون للقيام بما يؤمرون به بدقة وإتقان ، مع الالتزام التام بقواعد التخفي والتمويه والاستعداد للفداء بلا حدود ، وكان ولائهم لابن الصباح مطلقاً ، ويعيشون متخفين عن الناس جاهزين لأي مهمة يكلفونها حتى خشيهم الجميع ، وربما قدموا خدماتهم لمن يلجأ إليهم من الحكام الآخرين ، وقد أوجد ابن الصباح أساليب مبتكرة لإعداد أتباعه وكسب ولائهم .

وكان من عادات الفداوية في تنفيذ العمليات ، هي الاختباء في ملابس الصوفية أو ارتداء ملابس النساء والمكدين وال دراويش ، وانتظار المطلوب بين صفوف المصلين ، أو تقديم أنفسهم كطالبي حاجات وعابري سبل أو العمل داخل القصور تحت أسماء مستعارة حتى تحين فرصة الانقضاض على الضحية ، ويعترضون ضحيتهم وهو بين حرسه وشرطته وربما داخل ثكنة جيشه ، برسالة استرحام أو برسالة من صديق يتوسط بقضاء حاجة حاملها ، ولما يقترب الفدائي من المطلوب يقتله بغرز الخنجر في مقتل من جسده ، ولا تتردد الفدائية في التضحية بواحد من السرية المبعوثة لتنفيذ المهمة إذا اقتضى الأمر .

الأفعال في الاغتيالات :

كان حسن بن الصباح يقوم باختيار الأطفال حتى يتم تدريبهم تدريبات شاقة للقيام بعمليات الاغتيال وقد كان يراعى فيهم ألا يكونوا ذاقوا الخمر أو النساء أو أي من ملذات الحياة ، وقد كانت

بعض الأسر ترسل أبنائها إلى الحسن، حتى يجاهدوا في توسيع الدعوة الصباحية المقدسة

وقد أوكل أمر هؤلاء الفتية إلى بعض المعلمين يعلمونهم أصول مذهبهم واللغة والشعر.. كما تعلموا العلوم العسكرية على يد قادة بارعين جداً، وكانت تدريباته العسكرية رفيعة المستوى بدرجة كبيرة حتى أن الفدائي نفسه كان يتأذى أثناء التدريب.

أشهر الاغتيالات السياسية التي قام بها النزارية :

- اغتيال الوزير نظام الملك : وهو أول رجل دولة سلجوقي يفتاله الفدائية النزارية عام 485هـ/1092م

- اغتيال والي حمص : عام 495هـ/1102م أثناء صلاة الجمعة.

- اغتيال أمير الري : وفي سنة 496هـ/1103م قاموا باغتيال أمير الري في دار الوزير فخر الملك بن نظام الملك ⁽¹⁾.

- اغتيال الشيخ أبو جعفر المشاط : وفي عام 498هـ/1104م اغتال فدائيو النزارية الشيخ "أبو جعفر المشاط" أحد شيوخ الشافعية، فقد كان يُدرّس في الري، ويعظ الناس، فلما نزل عن كرسيه هاجمه باطني وقتله ⁽²⁾.

- اغتيال وزير السلطان بركياروق : وفي عام 498هـ/1104م نجح الفدائية النزارية في اغتيال الأستاذ عبد الجليل الداهستاني وزير السلطان بركياروق، فقد فاجأه فدائي على باب أصفهان وبقر بطنه بسكين كانت معه ⁽³⁾.

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 213/9

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 228/8.

(3) الأصفهاني، الفتح بن علي، تاريخ دولة آل سلجوق، ص 87.

- اغتيال الوزير فخر الملك : في سنة 500هـ/1106م فكر فخر الملك بن نظام الملك وزير السلطان سنجر أن يثأر لأبيه فهاجم قلاع الإسماعيلية، فأوفد إليه حسن الصباح أحد فدائييه ليقتله، فباغت الانتحاري الوزير فخر الملك بهيئة تظلم رفع صوته شاكياً " ذهب المسلمون، ما بقي من يكشف ظلامه، ولا من يأخذ لضعيف حقاً، ولا من يفرج عن ملهوف " فسمعه الوزير وهو يهيم بالخروج من دور بعض نسائه، فلما أدناه منه دفع إليه الفدائي رقعة، فبينما الوزير يتأملها، ضربه الفدائي بسكين في مقتلته فقتل فقضى نحبه، وهو بين حراسه، أما الانتحاري فكان مصيره أن " فُصل على قبر فخر الملك عضواً عضواً ⁽¹⁾

- اغتيال الوزير أبا نصر : وفي سنة 503هـ/1109م تمكن الفدائية النزارية من الوصول إلى بغداد وطعن " أبا نصر أحمد بن نظام الملك " وزير الخليفة العباسي المسترشد بالله فأصيب بالشلل ثم مات، فلما قبض على الانتحاري، أقر على جماعة من الباطنية بمسجد في محلة المأمونية فقتلوا وقتل معهم .

- اغتيال الأمير مودود : في عام 505هـ تعرض أحد الفدائية النزارية بزي المكدين للأمير " مودود " وهو مبعوث السلطان السلجوقي محمد شاه إلى الإفرنج، فبعد وصوله الجامع، جاء المكدي وطلب منه شيئاً ثم ضربه في فؤاده فمات .

- اغتيال الوزير الأفضل : في عام 514هـ/1121م نجح الفدائية النزارية في اغتيال الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي في مصر

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة . 221/9

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم لجزري، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1387هـ/1967م.
- 2- ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1963م.
- 3- ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1958م.
- 4- ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا الله ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ/1992م.
- 5- ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب، تاريخ المستنصر بدون معلومات نشر.
- 6- ابن ميسر، محمد بن علي بن يوسف بن جلب، تاريخ مصر، القاهرة، 1919م.
- 7- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الفتح محمد بن علي بن محمد البنداري الأصهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978م.
- 8- بدوي، عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميين، بدون معلومات نشر.
- 9- حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1984م.
- 10- حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1958م.

- 11- الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر، زبدة التواريخ أخبار الملوك والأمراء السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، 1405هـ/1985م.
- 12- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين، مطبعة السعادة، مصر، 1952م.
- 13- شرف، طه أحمد، دولة النزارية أحداد أغاخان، القاهرة، 1369هـ/1950م.
- 14- العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية بيروت، 1971م.
- 15- عطا الله ملك الجويني، تاريخ فاتح العالم (جهانكشاي)، ترجمة محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، 1985م.
- 16- غالب، مصطفى، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1965م.
- 17- غالب، مصطفى، أعلام الإسماعيلية، دار اليقظة العربية، بيروت، 1954م.
- 18- لويس، برنارد، الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1971م.
- 19- لويس، برنارد، الحشاشون. فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، ترجمة محمد العزب موسى مكتبة مدبولي، القاهرة، 2006م.
- 20- المقرئ، إسماعيل، أخبار أئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة سراي أحمد الثالث، القاهرة، 1948م.
- 21- النوبختي، أبو محمد الحسن، فرق الشيعة، تحقيق عبد المنعم الحنفي، دار الرشاد، 1412هـ/1992م.
- 22- الهمداني، رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1983م.

